سورة سبأ

مكية، [إلا آية ٦ فمدنية]

وآياتها ٥٤ [نزلت بعد لقمان]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله، ولما قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية، كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، كما تقول: احمد أخاك الذي كساك وحملك، تريد: احمده على كسوته وحملانه. ولما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت: ما الفرق بين الحمدين؟ قلت: أمّا الحمد في الدنيا فواجب، لأنه على نعمة متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأمّا الحمد في الآخرة فليس بواجب[١]، لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها[٢]، إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم: يتلذذون به كما يتلذذ من به العطاش[٣] بالماء البارد

---

(١) قال محمود: «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها، والثاني: ليس بواجب، لأنه على نعمة واجبة على المنعم» قال أحمد: والحق في الفرق بين الحمدين: أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية كالجبليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق والله الموفق.

(٢) قوله «نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها، مبني على مذهب المعتزلة، أما أهل السنة فلا يوجبون على الله شيئاً، ولا يجب الحمد في الآخرة، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(٣) قوله «كما يلتذ من به العطاش» في الصحاح: «العطاش»: داء يصيب الإنسان: يشرب الماء فلا يروى. (ع)

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الغيث كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] ومن الكنوز والدفائن والأموات. وجميع ما هي له كفات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الشحر والنبات. وماء العيون، والغلة، والدواب، وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ننزّل، بالنون والتشديد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قولهم ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾. أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أنبع المقسم به الوصف بما وصف به، إلى قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته واستقامته، لأنه/ ٢/ ١٠٨ب بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ. فإن قلت: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، وأوّلها مسارعة إلى القلب: إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة، وأنه كائن لا محالة، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئاً واضحاً. فإن قلت: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم، فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة وهي قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في

الغرائز وجوب الجزاء[١]، وأن المحسن لا بدّ له من ثواب، والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلاً له. قرئ: لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء: أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم[٢]. أو يسند إلى عالم الغيب، أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. وقرئ: عالم الغيب، وعلام الغيب: بالجر، صفة لربي. وعالم الغيب، وعالم الغيوب: بالرفع، على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر في الزاي، من العروب وهو البعد. يقال: روض عزيب: بعيد من الناس ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مثقال ذرّة. وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نفي الجنس، كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله، بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة وأصغر وأكبر وزيادة، لا لتأكيد النفي. وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟ قلت: يأبى ذلك حرف الاستثناء، إلا إذا جعلت الضمير في (عنه) للغيب، وجعلت (الغيب) اسماً للخفيات. قبل أن تكتب في اللوح لأنّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب، على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء، ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح[٣].

---

(١) قوله «وركب في الغرائز وجوب الجزاء» هذا مقتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة، فتدبر. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ بأنه ضرورة كقوله: ولا أرض أبقل إبقالها. وليس مثله وقيل أي الله بمعنى أمره ويجوز على قياس هذا الوجه أن يكون «عالم» فاعلاً ليأتينكم في قراءة من رفعه. انتهى الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُحْتَاج إلى التأويل إذا جعلنا الكتابَ ليس اللوح المحفوظ وقرأ زيد بنُ عليّ بخفض راء «أصْغَرِ» «وأكْبَرِ» وهي مشكلة جداً وخُرِّجَتْ على أنهما في نية الإضافة إذ الأصلُ ولا أصْغَرِهِ ولا أكْبره وما لا ينصرف إذا أُضيفَ انجَر في موضع الجر ثم حذف المضاف إليه ونوى معناه فترك المضاف بحاله وله نظائر كقولهم [من المنسرح]:

.... بَـيْـنَ ذِرَاعَـي وَجَـبْـهَـةِ الأَسَـدِ

ويا تَيْمَ عَدِيّ على خلاف. وقد يُفَرَّقُ بأنَّ هناك ما يدل على المحذوف لفظاً بخلاف هنا وقد ردَّ بعضُهم هذا التخريج لوجود «مِن» لأن أَفْعَلَ متى أُضِيفَ لم يجامع مِنْ وأجيب عن ذلك بوجهين.

أحدهما: أنَّ مِنْ ليست متعلقة بأفعل بل بمحذوف على سبيل البيان لأنه لما حُذِفَ المضافُ إليه انْبَهَمَ المضافُ فَبُيِّنَ بمن ومجرورها أي أعنى مِنْ ذلك.

والثاني: أنه مع تقديره للمضاف إليه نوى طرحه فلذلك أتى بمن ويدل على ذلك أنه قد ورد التصريح بالإضافة مع وجود مِنْ قال الشاعر [من المنسرح]:

نَـحْـنُ بِـغَـرْسِ الـوَدِى أَعْـلَـمُـنَـا مِـنَّـا بِـرَكْـضِ الـجِـيَـادِ فـي الـسَّـدَفِ =

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

وقرئ معجزين. وأليم، بالرفع والجر. وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ويرى في موضع الرفع. أي: ويعلم أولو العلم، يعني أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ومن يطأ أعقابهم من أمّته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنهما ـ، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . ٱلْحَقَّ﴾ هما مفعولان ليرى، وهو فصل من قرأ (الحق) بالرفع: جعله مبتدأ و(الحق) خبراً، والجملة في موضع المفعول الثاني. وقيل: (يرى) في موضع النصب معطوف على (ليجزي) أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق. علماً لا يزاد عليه في الإيقان، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوزأن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قريش. قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه؟ ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما؛ بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث: واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك. وذلك أجنّ الجنون وأشدّه إطباقاً على عقولهم: جعل وقوعهم في

= وخُرِّجَ على هذين الوجهين إما التعلق بمحذوف وإمّا نِيَّةُ اطّراح المضاف إليه قُلْتُ: وهذا كما احتاجوا إلى تأويل الجمع بين أَلْ ومِنْ أَفْعَلَ كقوله:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى

وهذه توجيهاتُ شذوذٍ لا يُطْلَبُ فيها أكثر من ذلك فليُقْنَع بمثله. انتهى. الدر المصون.

العذاب رسيلا لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد؛ لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته: جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان. وقرأ زيد بن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ينبيكم. فإن قلت: فقد جعلت الممزق مصدراً، كبيت الكتاب [من الوافر]:

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ الْقَوَافِي ... فَلاَ عِيًّا بِهِنَّ وَلاَ اجْتِلاَبَا؟[1]

فهل يجوز أن يكون مكاناً؟ قلت: نعم. معناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع، وما مزّت به/ ٢/ ١٠٩أ السيول فذهبت به كل مذهب، وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح. فإن قلت: ما العامل في إذا؟ قلت: ما دلّ عليه ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد سبق نظيره. فإن قلت: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قلت: هو عند البصريين بمعنى فاعل، تقول: جد فهو جديد، كحد فهو حديد، وقلّ فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى: مفعول، من جده إذا قطعه. وقالوا: هو الذي جده الناسج الساعة في الثوب؛ ثم شاع. ويقولون؛ ولهذا قالوا[2] ملحفة جديد، وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] ونحو ذلك. فإن قلت: لم أسقطت الهمزة في قوله: ﴿أَئِنَّا﴾ دون قوله: (السحر)، وكلتاهما همزة وصل؟ قلت: القياس الطرح، ولكن أمراً اضطرّهم إلى ترك إسقاطها في نحو (آلسحر) وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت هو من الإسناد المجازي؛ لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة، وكلما ازداد عنها بعداً كان أضل. فإن قلت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

---

(١) لجرير، وهو من أبيات الكتاب. والمسرح: مصدر على زنة المفعول، فهو بمعنى التسريح، أي: الإرسال أو التسوية. وسرحت الجارية شعرها: مشطته، فاسترسل وحسن، وهو مضاف لياء الفاعل. والقوافي: مفعول، ونصب العي لشبهه بالمضاف، أو نونه للضرورة، أي: لا أعي بها، ولا أعجز عنها، ولا أجتلبها، ولا أسرقها، ويجوز أن العي ركاكة المعنى. والاجتلاب: الاستتار، من جلبة الجرح، وهي قشرته الساترة له، فيهن: بمعنى فيهن.
ينظر: ديوانه ص ٦٥١، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٩٧، والكتاب ١/ ٢٣٣، ٣٣٦، ولسان العرب (جلب)، (سحج)، وبلا نسبة في لسان العرب (يسر)، والمقتضب ١/ ٧٥، ٢/ ١٢١.

(٢) قوله «ولهذا قالوا» أي العرب. (ع)

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجلّ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له؛ لأنّ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. قرئ يشأ ويخسف ويسقط: بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وبالنون لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وكسفاً: بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائي: يخسف بهم، بالإدغام وليست بقوية.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَا جِبَالُ﴾ إمّا أن يكون بدلاً من ﴿فَضْلًا﴾، وإمّا من ﴿آتَيْنَا﴾ بتقدير: قولنا يا جبال. أو: قلنا يا جبال. وقرئ: أوّبي، وأوبي: من التأويب. والأوب: أي رجعي معه التسبيح. أو ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه؛ لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه: ومعنى تسبيح الجبال: أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح: معجزة لداود. وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين، وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها[1] والطير بأصواتها. وقرئ: والطير، رفعاً ونصباً، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها. وجوّزوا أن ينتصب مفعولاً معه، وأن يعطف على فضلاً، بمعنى وسخرنا له الطير. فإن قلت: أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال: ﴿آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي

---

(١) قوله «بأصدائها» جمع صدى، وهو الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها، كذا في الصحاح. (ع)

لا تخفى من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا: إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين والشمع، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة. وقرئ صابغات، وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح. وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدّق على الفقراء. وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكراً، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته، فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود، فسأله؟ فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدِّرْ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فتغلق، ولا غلاظاً فتفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ فيمن نصب: ولسليمان الريح مسخرة، فيمن رفع، وكذلك فيمن قرأ: الرياح، بالرفع ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك. وقرئ: غدوتها وروحتها. وعن/ ٢/ ١٠٩ب الحسن ـ رضي الله عنه ـ: كان يغدو فيقيل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل. ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان: نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر: النحاس المذاب من القطران. فإن قلت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله[1] كما ألان الحديد لداود، فنبع كما ينبع الماء من العين؛ فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه، كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقيل: كان يسبل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه من طاعة سليمان وقرئ: يزغ من أزاغه. وعذاب السعير: عذاب الآخرة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجني. المحاريب: المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال: سميت محاريب لأنه يحامي عليها ويذب عنها. وقيل: هي المساجد. والتماثيل: صور الملائكة والنبيين والصالحين، كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير؟

---

(١) قوله «ولكنه أساله كما ألان الحديد» لعله: أساله له. (ع)

قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع؛ لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب، وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّماً. ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها؛ لأنّ التمثال كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان. أو تصوّر محذوفة الرءوس. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. والجوابي: الحياض الكبار، قال [من الطويل]:

تَـرُوحُ عَـلَـىٰ آلِ الْـمُـحَـلَّـقِ جَـفْـنَـةٌ كَـجَـابِـيَـةِ الـسَّـيْـحِ الْـعِـرَاقِـيِّ تَـفْـهَـقُ[1]

لأنّ الماء يجبى فيها، أي: يجمع. جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة. قيل: كان يعقد على الجفنة ألف رجل. وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]. ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب ﴿شُكْرًا﴾ على أنه مفعول له، أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر. أو على الحال، أي: شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكراً، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث أنّ العمل للمنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به. ومعناه: إنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه: قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً، وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من يشكر على أحواله كلها. وعن السدي: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: إني سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل

---

(١) للأعشى في مدح المحلق. وروي «تلوح» بدل تروح؛ لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النهار مستعلية عليهم. والجفنة: قصعة الثريد. والجابية: الحوض يجبي الماء، أي: يجمعه إلى الحوض. والسيح: الماء الكثير الجاري. وفهق يفهق، كفرح يفرح: اتسع وامتلأ وتدفق. ومنه الحديث: أنه قام إلى باب الجنة فانفهقت له، أي: انفتحت واتسعت. والمتفيهق: المكثر من الكلام، فقوله «تفهق» أي تمتلىء مع اتساعها حتى تكاد تتدفق.
ينظر: ديوانه ص ٢٧٥، ولسان العرب (حلق)، (فهق)، (جبى)، وتهذيب اللغة ٥/ ٤٠٤، ومقاييس اللغة ١/ ٥٠٣، ٤٥٦، ومجمل اللغة ٤/ ٦٧، وتاج العروس (فهق)، (جبى)، وبلا نسبة في المخصّص ١٠/ ٥٠.

الناس أعلم من عمر (١٢٢٧).

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قرئ: فلما قضي عليه الموت. ودابة الأرض: الأرضة، وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضت الخشبة أرضاً. إذا أكلتها الأرضة. وقرئ بفتح الراء، من أرضت الخشبة أرضاً، وهو من باب فعلته ففعل، كقولك: أكلت القوادح الأسنان أكلاً، فأكلت أكلاً. والمنسأة: العصا؛ لأنه ينسأ بها، أي: يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسي. ومنساءته على مفعالة، كما يقال في الميضأة ميضاءة. ومن سأته، أي: من طرف عصاه، سميت بسأة[1] القوس على الاستعارة. وفيها لغتان، كقولهم: قحة وقحة[2]. وقرئ: أكلت منسأته ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى/ ٢/ ١١٠أ. و﴿إِنَّ﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال، كقولك: تبين زيد جهله: والظهور له في المعنى، أي: ظهر أنّ الجن ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ أو علم الجن كلهم علماً بيناً ـ بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم ـ أنّ كبارهم يصدّقون في ادعائهم علم الغيب. أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدّعي الباطل إذا دحضت حجته[3] وظهر إبطاله بقولك: هل تبينت أنك مبطل. وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً. وقرئ: تبينت الجن، على البناء للمفعول، على أن المتبين في المعنى هو (أن) مع ما في صلتها، لأنه بدل، وفي قراءة أبيّ: تبينت

١٢٢٧ ـ أخرجه أبو بكر بن شيبة في مصنفه (٦/ ٦٥) كتاب الدعاء: باب ما ذكر عن أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ من الدعاء، حديث (٤/ ٢٩٥).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٣١)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٤١). وزاد نسبته إلى أحمد بن حنبل في الزهد.
قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد من رواية التيمي عن عمر فذكر نحوه. انتهى.

---

(١) قوله «سميت بسأة القوس» في الصحاح «سية القوس»: ما عطف من طرفيها، وكان رؤبة يهمز: سية القوس، وسائر العرب لا يهمزونها. (ع)
(٢) قوله «كقولهم قحة وقحة» كسعة وكمدة، بمعنى الوقاحة: وهي الصلابة. (ع)
(٣) قوله «إذا دحضت حجته» في الصحاح: بطلت. (ع)

الإنس. وعن الضحاك: تباينت الإنس بمعنى تعارفت وتعاملت. والضمير في (كانوا) للجن في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب؛ ما لبثوا. وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: تبينت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب. روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله، فيسألها: لأي شيء أنت؟ فتقول لكذا، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة، فسألها، فقالت: نبت لخراب هذا المسجد؛ فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حيّ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال: اللهم عم عن الجن موتي، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب. لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكىء عليها؛ وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة. وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة، وروي أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب. روي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها؛ فلم يجسر أحد بعدُ أن يدنو منه، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة: ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قرئ ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالصرف ومنعه، وقلب الهمزة ألفاً. ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرها،

وهو موضع سكناهم؛ وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها، أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: مساكنهم. و﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية جنتان. وفي الرفع معنى المدح، تدل عليه قراءة من قرأ: جنتين، بالنصب على المدح. فإن قلت: ما معنى كونهما آية؟ قلت: لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخربهما، وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية، وعبرة لهم، يعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية، أي: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية، ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت: لم يرد بساتين اثنين فحسب، وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها، كأنها جنة واحدة، كما تكون بلاد الريف العامة وبساتينها. أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولما قال: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ أتبعه قوله ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم/ ٢/ ١١٠ب رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت أخصب البلاد وأطيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر (طيبة) لم تكن سبخة. وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة ورباً غفوراً، بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ الجرذ[1] الذي نقب عليهم السكر. ضربت لهم بلقيس الملكة بسدّ ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروقاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم، فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدّهم الخلد[2]، فنقبه من أسفله فغرقهم. وقيل: العرم جمع عرمة. وهي الحجارة المركومة.

---

(١) قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفأر. وفيه: سكرت النهر سكراً، إذا شددته. (ع)

(٢) قوله «سلط الله على سدهم الخلد فنقبه» في الصحاح «الخلد»: ضرب من الجرذان أعمى. وفيه «المكدس» بالضم.: واحد أكداس الطعام. (ع)

ويقال للكدس من الطعام: عرمة، والمراد: المسناة[1] التي عقدوها سكراً: وقيل: العرم اسم الوادي: وقيل: العرم المطر الشديد. وقرئ: العرم؛ بسكون الراء. وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقرئ: أكل، بالضم والسكون، وبالتنوين والإضافة. والأكل: الثمر. والخمط: شجر الأراك، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك. وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً من مرارة، حتى لا يمكن أكله. والأثل: شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً. ووجه من نون: أن أصله ذواتي أكل أكل خمط. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده، فلأن أكل الخمط في معنى البرير[2]، كأنه قيل: ذواتي برير. والأثل والسدر: معطوفان على أكل، لا على خمط لأن الأثل لا أكل له. وقرئ: وأثلا. وشيئاً: بالنصب، عطفاً على جنتين. وتسمية البدل جنتين، لأجل المشاكلة وفيه: ضرب من التهكم. وعن الحسن رحمه الله: قال السدر، لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ: وهل يجازي. وهل نجازي، بالنون. وهل يجازي والفاعل الله وحده. وهل يجزي؛ والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء، ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإنابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم. قيل: ﴿وهل يجازي إلا الكفور﴾ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح؛ وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء. والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن: لم يصح ولم يسد كلاماً؟ فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) قوله «والمراد المسناة التي عقدوها» في الصحاح: المسناة: العرم وفيه: العرم المسناة. وفي ذلك دور. (ع)

(٢) قوله «فلأن أكل الخمط في معنى البرير» في الصحاح «البرير»: ثمر الأراك. (ع)

﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ متواصلة؛ يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو راكبة متن الطريق: ظاهرة للسابلة؛ لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية. والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ وقلنا لهم: سيروا؛ ولا قول ثم، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه؛ كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾؟ قلت: معناه سيروا فيها، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً ولياليَ، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان، لا تلقون فيها إلا الأمن. قرئ: ربنا باعد بين أسفارنا. وبعد. ويا ربنا، على الدعاء. بطروا النعمة، وبشموا من طيب العيش[1]، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جنانا أبعد كان أجدر أن نشتهيه. وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة. وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا، وبعد بين أسفارنا/ ٢/١١١أ على النداء، وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به، كما تقول: سير فرسخان، وبوعد بين أسفارنا. وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا، وبين سفرنا، وبعد، برفع ربنا على الابتداء، والمعنى خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوّها لفرط تنعمهم وترفههم، كأنهم كانوا يتشاجون[2] على ربهم ويتحازنون عليه ﴿أَحَادِيثَ﴾ يتحدّث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم، وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ. قال كثير [من الطويل]:

أَيَـادِي سَـبَـا يَـا عَـزَّ مَـا كُـنْـتُ بَـعْـدَكُـمْ ... فَـلَـمْ يَـحْـلُ بِـالْـعَـيْـنَـيْـنِ بَـعْـدَكِ مَـنْـظَـرُ[3]

---

(١) قوله «وبشموا من طيب العيش» بشموا، أي: سئموا. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «كأنهم كانوا يتشاجون» في الصحاح «الشجو»: الهم والحزن. (ع)

(٣) لكثير صاحب عزة. وسبأ: بلدة كانت كثيرة الخصب طيبة البساتين، فكفر أهلها نعمة الله فأرسل عليهم السيل، وبدلهم بالخصب جدباً، وبالرغد ضيقا، وبالسمن غثا، فصاروا لا ينالون الأقوات إلا من جهات بعيدة، والمراد بالأيادي: النعم، وأيادي سبأ: استعارة لأحوال نفسه التي تشبه أحوال سبأ في التشتت والتنغص. أو تشبيه بليغ على الخلاف. وفيه مجاز بالحذف، أي: أيادي أهل سبأ ما كنته بعدكم. أي: ما كنت متصفاً به من الأحوال كأحوال سبأ. ويجوز أن ما مصدرية، أي: أكواني وأحوالي بعدكم كأحوال سبأ. أو المراد بأيادي سبأ: أصحابها الذين كانوا يعمرونها، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فشبه نفسه بهم لعدم استقراره. وتطلق سبأ على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان: كان =

لحق غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان ﴿صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي للنعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قرئ: صدّق، بالتشديد والتخفيف، ورفع إبليس ونصب الظن، فمن شدّد فعلى: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقاً؛ ومن خفف فعلى: صدق في ظنه أو صدّق يظن ظناً، نحو: فعلته جهدك، وبنصب إبليس ورفع الظن؛ فمن شدّد فعلى: وجده ظنه صادقاً؛ ومن خفف فعلى: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، يقولون: صدقك ظنك. وبالتخفيف ورفعهما على: صدق عليهم ظن إبليس؛ ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني، ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال إنّ ذرّيته أضعف عزماً منه، فظنّ بهم اتباعه وقال: لأضلنهم، لأغوينهم. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿اتَّبَعُوهُ﴾ إمّا لأهل سبأ، أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار، كما قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول ﴿حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه، وفعيل ومفاعل: متآخيان.

= ذا مال وبنين، فتفرق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك، فأطلق الأيادي عليهم؛ لأن بهم قوته كالأيادي. ثم شبه نفسه بهم في الشتات. وعز: مرخم، وفي ندائها معنى التوجع والاستعطاف، وخاطبها بضمير جمع المذكر تعظيما، ولذلك لا تجده في مواضع ذمهن. وجملة النداء معترضة بين الخبر والمبتدأ؛ ويحتمل أن التقدير: أنا كأيادي سبأ مدة كوني بعدكم، فهي معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل، شبه الحسن بالحلاوة بجامع اللذة. وقيل: حلى يحلي، كرضى يرضى في المنظر. وحلا يحلو في الطعم، وماهنا من الأول فلا مجاز، والمنظر مصدر بمعنى النظر، ويجوز أن الحلاوة الحسن والمنظر ـ بالفتح ـ: مكان النظر، ويجوز أنه النظر. أي: فلم يحسن لعيني غيرك، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك. فالخطاب لها ولحبها! ولكن موارد الاستعمال يعضدها ما تقدم، وروي: فلن يحل، فزعم بعضهم أن «لن» قد تجزم كما هنا، وعلى المنع فحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله. والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر، أو نفع أو ضر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما له منهم من معين يعينه على تدبير خلقه، يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، فكيف يصح أن يُدعوْا كما يدعى ويُرجوْا كما يرجى، فإن قلت: أين مفعولا زعم؟ (قلت): أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأما الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أو محذوفاً فلا يصح الأول، لأنّ قولك: هم من دون الله، لا يلتئم كلاماً، ولا الثاني، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم؛ وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد؟ فبقي أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً، لطول الموصول لصلته. وحذف آلهة لأنه موصوف صفته ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً، فإذاً مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

تقول: الشفاعة لزيد، على معنى أنه الشافع، كما تقول: الكرم لزيد: وعلى معنى أنه المشفوع له، كما تقول: القيام لزيد، فاحتمل قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين، أي: لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له. أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له، أي: لشفعيه، أو هي اللام الثانية في قولك: أذن لزيد لعمرو، أي لأجله، وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه، وهذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولأي شيء وقعت حتى غاية/ ٢/ ١١١ب؟ قلت: بما فهم من هذا الكلام، من أنّ ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين

للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان. وطول من التربص، ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجلّ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون كلياً فزعين وهلين، حتى إذا فزع عن قلوبهم، أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾ قال: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ «فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة» (١١٢٨). وقرئ أذن له، أي: أذن له الله، وأذن له على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: فزع، مخففاً، بمعنى فزع. وقرئ فزع، على البناء للفاعل، وهو الله وحده، وفرَّغ، أي: نفى الوجل عنها وأفنى، من قولهم: فرغ الزاد، إذا لم يبق منه شيء. ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور، كما تقول: دفع إليّ زيد، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف، وأصله: فرغ الوجل عنها، أي: انتفى عنها، وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور، وقرأ: افرنقع عن قلوبهم، بمعنى: انكشف عنها. وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار[1] فالتف عليه الناس، فلما أفاق قال: ما لكم تكأكأتم عليَّ تكأكأكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركب «اقمطر» من حروف القمط، مع زيادة الراء. وقرئ الحق بالرفع، أي: مقوله الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

أمره بأن يقررهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق

١١٢٨ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله «أنه هاج به المرار» في الصحاح «المرار»: بضم الميم: شجر مر، إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. ومنه: بنو آكل المرار: وهم قوم من العرب. (ع)

مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة، ومرّة كانوا يتلعثمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة، ونحوه قوله عزّ وجلّ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦] وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يتوحدو الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[1] بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته[2] بالهوينا ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب[3]؛ ومنه بيت حسان [من الوافر]:

---

(١) قوله «ولكن التعريض والتورية أنضل» في الصحاح «ناضله»: راماه، يقال: ناضلت فلاناً فنضلته إذا غلبته اهـ. فالأفضل الأشد رمياً، فلذا عدى بإلى. (ع)

(٢) قوله «وفل شوكته» أي كسرها. (ع)

(٣) قال محمود: «لما ألزمهم الحجة في قوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ وهلم جرا إلى الآية المذكورة ـ وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ـ أمره أن يقول ﴿وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السموات والأرض بالعبادة، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة: لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به: قد أنصفك صاحبك، والتعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: الله يعلم الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب ومنه قول حسان [من الوافر]:

أتهجوه ولست له بكفء؟ فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد: وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاذه الخاطر كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد، فتأمله والله الموفق.

أَتَـهْـجُـوهُ وَلَـسْـتَ لَـهُ بِـكُـفْءٍ؟ فَـشَـرُّكُـمَـا لِـخَـيْـرِكُـمَـا الْـفِـدَاءُ[1]

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه. وفي قراءة أبيّ: وإنا وإياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين، وإن أراد بالإجرام: الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن، وبالعمل: الكفر والمعاصي العظام[2]/ ٢/ ١١٢أ. وفتح الله بينهم: وهو حكمه وفصله: أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾ وكان يراهم ويعرفهم؟ قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به. و﴿كَلَّاۚ﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعدما كسده بإبطال المقايسة، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده. أو ضمير الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «وهذا القول أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم. وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات، التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك. والله أعلم.

﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة، ومن جعله حالاً من المجرور متقدّماً عليه فقد أخطأ؛ لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأوّل إلا بالخطأ الثاني، فلا بد له من ارتكاب الخطأين[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قرئ ميعادُ يوم، وميعادٌ يومٌ، وميعادٌ يومًا، والميعاد: ظرف الوعد من مكان أو زمان، وهو ههنا الزمان. والدليل عليه قراءة من قرأ: ميعاد يوم فأبدل منه اليوم. إن قلت: فما تأويل من أضافه إلى يوم، أو نصب يوماً؟ قلت: أما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: سحق ثوب، وبعير سانية. وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد،

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وأما قوله كذا فهو مختلف فيه ذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه قال: وهو الصحيح. قال: ومِنْ أَمْثِلَةِ أبي عليّ: زيدٌ خيرُ ما تكونُ خيرٌ منك التقدير زيد خيرٌ منك خير ما تكون فجعل خير ما تكون حالا من الكاف في منك وقدمها عليها وأنشد [من الطويل]:

إذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيْهِ شَدِيدُ

أي فمطلبها عليه كَهْلاً. وأنشد أيضاً [من الطويل]:

تَسَلَّيْتُ طُرّاً عَنْكُمُ بَعْدَ بَيْنِكُم ... بِذِكْرَاكُمُ حَتَّى كَأَنَّكُمُ عِنْدِي

أي عنكم طُرّاً. وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به قال الشاعر:

مَشْغُوفَةً بِكَ قَدْ شُغِفْتُ وإنَّمَا ... حَتْمُ الْفِرَاقُ فَمَا إلَيْكَ سَبِيلُ

أي قد شُغِفَتْ بِكَ مشغُوفَة. وقال الآخر [من الخفيف]:

غَافِلاً تَعْرِضُ الْمَنِيَّةُ لِلْمَرْ ... ءِ فَيُدْعَى وَلاَتَ حِينَ إِبَاء

أي تعرض المنيةُ للمرءِ غافلاً. قال: وإذا جاز تقديمها على صاحبها وعلى العامل فيه فَتَقْدِيمُهَا على صاحبها وحده أَجْوَز. قال: ومِمَّنْ حمله على الحال ابن عطية فإنه قال: قُدِّمَتْ للاهتمام والمنقول عن ابن عباس قوله إلى العرب وسائر الأمم وتقديره إلى الناس كافة. قال وقول الزمخشري لا يستوي له الخطأ الأول إلى آخره تشنيعٌ لأنَّ القائل بذلك لا يحتاج إلى جعل اللام بمعنى إلى لأن أَرْسَلَ يتعدى باللام قال تعالى: ﴿رَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ وأَرْسَلَ مما يتعدى باللام وبإلى أيضاً فقد جاءت اللام بمعنى إلى وإلى بمعناها. قُلْتُ: أمَّا «أرسلناك للناس» فلا دلالة فيه لاحتمال أن تكون اللام لام العلة المجازية وأما كونها بمعنى إلى والعكس فالبصريون لا يتجَوَّزُونَ في الحروف و«بَشيراً ونَذِيراً حالان أيضاً. انتهى. الدر المصون.

أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم. فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً، لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدّماً عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

الذي بين يديه: ما نزل قبل القرآن من كتب الله: يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ـ ﷺ ـ في كتبهم، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدّمه من كتب الله عزّ وجلّ في الكفر، فكفروا بها جميعاً. وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة. والمعنى: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجيب[1]، فحذف الجواب. والمستضعفون: هم الأتباع، والمستكبرون: هم الرءوس والمقدّمون.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أولى الاسم أعني ﴿أَنَحْنُ﴾ حرف الإنكار؛ لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم، كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾ بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهي، فكنتم

---

(١) قوله «لرأيت العجيب» لعله: العجب، كعبارة النفسي. (ع)

مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا. فإن قلت: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافا إليها؟ قلت: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان، كما أضيف إلى الجمل في قولك: جئتك بعد إذ جاء زيد، وحينئذٍ، ويومئذٍ، وكان ذلك أوان الحجاج أمير، وحين خرج زيد. لما أنكر المستكبرون بقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾/ ٢/ ١١٢ب أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعين وأثبتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم. كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي. وقرئ: بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب، أي تكرّون الإغواء مكرّاً دائباً لا تفترون عنه. فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب؟ قلت: هو مبتدأ أو خبر، على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك. والنصب على: بل تكرّون الإغواء مكرّ الليل والنهار؛ فإن قلت: لم قيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، بغير عاطف؛ وقيل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾؟ قلت: لأن الذين استضعفوا مرّ أولاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأوّل فإن قلت: من صاحب الضمير في ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين، وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي في أعناقهم، فجاء بالصريح للتنويه بذمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

هذه تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ مما مني[1] به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة[2] وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين،

---

(١) قوله «مما مني به من قومه» أي ابتلي به. (ع)

(٢) قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

والاستهانة بهم من أجله، وقولهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ـ ﷺ ـ أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم؛ فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] وقرئ يقدّر، بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم، وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها، أي: ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن: باللاتي تقرّبكم؛ لأنها جماعات. وقرئ: بالذي يقرّبكم، أي: بالشيء الذي يقرّبكم. والزلفى والزلفة: كالكربى والكربة، ومحلها النصب، أي: تقرّبكم قربة، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء من (كم) في (تقرّبكم)، والمعنى: أنّ الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاة والطاعة، جزاء ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً. وقرئ: جزاء الضعف. على: فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على: أن يجازوا الضعف، وجزاء الضعف مرفوعان: الضعف بدل من جزاء. قرئ: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي/ ٢/ ١١٣أ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فهو يعوّضه لا معوّض سواه: إما عاجلاً بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفذ. وإما آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه. وعن مجاهد: من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإنّ الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر، ولا يتأولن: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، فإن هذا في الآخرة. ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأعلاهم رب العزة، بأن كل ما رزق غيره: من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق عبده، أو رجل يرزق عياله: فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء. وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني[1] وجعلني ممن يشتهي؛ فكم من مشته لا يجد، وواجد لا يشتهي.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار؛ وارد على المثل السائر [من الرجز]:

إِيَّاكِ أَعْنِي وَٱسْمَعِي يَا جَارَهْ[2]

---

(١) قوله «الحمد لله الذي أوجدني» في الصحاح: وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه، أي أظفره به وأوجده أي: أغناه. (ع)

(٢) يا أخت خير البدو والحضاره ... كيف ترين في فتى فزاره؟
أصبح يهوى حرة معطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره
لسهل بن مالك الفزاري، يخاطب أخت حارثة بن لأم، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته، فرآها في غاية الجمال والكمال، فأنشد ذلك، فأجابته بقولها:
إني أقول: يا فتى فزاره ... لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذى الحاره ... فارحل إلى أهلك باستحاره
فارتحل، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى، وكان حسن الطلعة، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها، ففعل، وتزوجها وارتحل بها. والبدو: هو البادية. والحضارة: هي الحاضرة. والمراد أهلهما، وكيف: اسم استفهام نصب على المفعولية بترين. والمعنى: أي حال ترين في فتى هذه القبيلة؟ يعني نفسه. وفيه تعريض بخطبتها. والمعطارة: كثيرة التعطر. ولحاق تاء التأنيث لمفعال شاذ ـ إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا ـ ويمكن أنها لزيادة المبالغة، لا للتأنيث. والدعارة: الفسق والخبث والفساد. وهذي: اسم إشارة. وقولها: باستحارة: أي بكمال وعدم نقص. أو بتحير وعدم اهتداء. يقال: استحار الإناء، إذا امتلأ وتكامل. واستحار الرجل: إذا نحر في رأيه. =

ونحوه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا؛ فيكون تقريعهم أشدّ. وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم: وهو أنه ألزم، ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه، وزاجراً لمن اقتص عليه. والموالاة: خلاف المعاداة. ومنها: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وهي مفاعلة من الولي وهو القرب، كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد، والولي: يقع على الموالي والموالي جميعاً. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالاة بيننا وبينهم، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يريدون الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت، فيعبدون بعبادتها. وقرئ: نحشرهم. ونقول، بالنون والياء.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد؛ لأنّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم، يتضارّون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذٍ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ معطوفاً على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

الإشارة الأولى: إلى النبي ﷺ. والثانية إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق، والحق أمر

= ينظر: مجمع الأمثال ١/ ٤٩، وبلا نسبة في لسان العرب (عطر)، (عنا)، وتاج العروس (عطر)، والبيت الثاني من أمثال العرب، وهو في تمثال الأمثال ١/ ٣٦٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٩، والحيوان ٣/ ١٢٢، وزهر الأكم ١/ ١٤٠، ٣٣٣، والعقد الفريد ٣/ ٨٦، ٦/ ٣٣٥، والفاخر ص ١٥٨، وفصل المقال ص ٧٦، ٧٧، وكتاب الأمثال ص ٦٥، والمستقصي ١/ ٤٥٠، والوسيط في الأمثال ص ٥٢، وتهذيب اللغة ٣/ ٢١٢.

النبوّة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحراً.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

وما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك، ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٥] أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف: ٢١] فليس لتكذيبهم وجه متشبث، ولا شبهة متعلق، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتب وشرائع، ومستندون إلى رسل من رسل الله. ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار/ ٢/ ١١٣ب وقوّة الأجرام وكثرة الأموال، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وقرئ: يدرّسونها، من التدريس وهو تكرير الدرس. أو من درّس الكتاب، ودرّس الكتب: ويدّرسونها، بتشديد الدال: يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع، وهما: العشر، والربع. فإن قلت: ما معنى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ قلت: لما كان معنى قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه: جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ، ويجوز أن ينعطف على قوله: وما بلغوا، كقولك: ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[1] أي للمكذبين الأوّلين، فليحذروا من مثله.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) قوله «فكيف كان نكير» وفي النسفي: أن يعقوب قرأ «نكيري» بالياء في الوصل والوقف. (ع)

﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة، وقد فسرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ على أنه عطف بيان لها[1]، وأراد بقيامهم: إما القيام عن مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين، ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم: وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً. متفرّقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أمّا الاثنان: فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول: ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يسمع إلا نصرة المذهب، وأراهم بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً، لا يتصدّى لادعاء مثله إلا رجلان: إمّا مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز، بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب. وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة، مختار من أهل الدنيا، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه، وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه، وقد علمتم أنّ محمداً ﷺ ما به من جنة، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً، وأرزنهم حلماً وأثقبهم ذهناً وآصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب؛ وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية؛ فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين. فإن قلت: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ـ ﷺ ـ. ويجوز أن يكون المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة، وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة» (١٢٢٩)[2].

١٢٢٩ ـ تقدم في سورة الأنبياء. =

---

(١) قال السمين الحلبي: وهو مردود لتحالفهما تعريفاً وتنكيراً. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح»: أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه =

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَهُوَ لَكُمْ ۖ﴾ جزاء الشرط الذي هو قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ تقديره: أيّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ وفيه معنيان، أحدهما: نفي مسألة الأجر رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخذه، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت؛ لتعليقه الأخذ بما لم يكن. والثاني: أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧] وفي قوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم، وكذلك المودّة في القرابة، لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حفيظ مهيمن، يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه، ولا أطمع منكم في شيء.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ۖ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

القذف والرمي: تزجية[1] السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ومعنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه. أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ رفع محمول على محل إن واسمها، أو على المستكن/ ٢/ ١١٤أ في يقذف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب صفة لربي، أو على المدح. وقرئ: الغيوب بالحركات الثلاث، فالغيوب كالبيوت. والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

والحيّ إمّا أن يبدىء فعلاً أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة، فجعلوا قولهم: لا يبدىء ولا يعيد مثلاً في الهلاك؛ ومنه قول عبيد [من مخلع البسيط]:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ ... فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِي وَلاَ يُعِيدُ[2]

= وقال ابن حجر: تقدم في الأنبياء. انتهى.

= الحديث «بعثت في نسم الساعة» أي: حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسم أيضاً: جمع نسمة وهي النفس. (ع)

(١) قوله «القذف والرمي تزجية السهم» في الصحاح: زجيت الشيء تزجية إذا دفعته برفق. (ع)

(٢) لعبيد بن الأبرص. وأقفر: خلا أو هلك عبيد من أهله. والإبداء والإعادة من لوازمهما الحياة، فنفيهما كناية عن نفيها بالموت. كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل =

والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود نبعة[1] ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ (١٢٣٠). والحق: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: السيف. وقيل الباطل: إبليس لعنه الله، أي: ما ينشىء خلقاً ولا يعيده، المنشىء والباعث: هو الله تعالى. وعن الحسن: لا يبدىء لأهله خيراً ولا يعيده، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: أيّ شيء ينشىء إبليس ويعيده، فجعله للاستفهام. وقيل للشيطان: الباطل؛ لأنه صاحب الباطل؛ أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان، من شاط إذا هلك.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

قرئ: ضلَلت أضِلّ، بفتح العين مع كسرها. وضلِلت أضَلّ، بكسرها مع فتحها، وهما لغتان، نحو: ظللت أظلّ، وظللت أظلّ. وقرئ إضلّ: بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت: أين التقابل بين قوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فإنما أهتدي لها، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال: فإنما أضل بنفسي. قلت: هما متقابلان من جهة المعنى؛ لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعني: أنّ كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها: لأن الأمّارة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته

١٢٣٠ ـ قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه وقد تقدم في سورة الإسراء. انتهى.

= من يلقاه، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه، فصادفه فيه عبيد، فقيل له: امدحه بشعر لعله يعفو عنك، فقال: حال الجريض دون القريض، أي منعت الغصة الشعر، فضرب ذلك مثلاً وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا، وفي مجاني الأدب: أن المنذر قال له: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب، فقال: أقفر من أهله عبيد. وملحوب: اسم موضع، استنشسده بيتاً قديماً فعلم أنه يريد هلاكه، فقال: لا قدرة لي على إبداء شعر جديد، ولا على إعادة شعر قديم، ودخل في حشو البيت الزحاف الطي، ومن العلل القطع. فصار مستفعلن على وزن مستعل بسكون اللام، وذلك في قوله «أهله».

ينظر ديوانه (ص ٤٥)، لسان العرب (قفر)، تهذيب اللغة (٩/ ١٢٠)، تاج العروس (قفر)، أساس البلاغة (عود)، الدر المصون (٥/ ٤٥٣).

(١) قوله «فجعل يطعنه بعود نبعة» لعله «معه» كعبارة النسفي. (ع)

كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالّ ومهتد، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، يعني: لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة. و«لو» و«إذ» والأفعال التي هي «فزعوا» و«أخذوا» وحيل بينهم: كلها للمضي. والمراد بها الاستقبال؛ لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه، ووقت الفزع: وقت البعث وقيام الساعة. وقيل: وقت الموت. وقيل: يوم بدر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في خسف البيداء، وذلك أنّ ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. وقرئ: فلا فون. والأخذ من مكان قريب: من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأُخِذُوا۟﴾؟ قلت: فيه وجهان: العطف على فزعوا، أي: فزعوا وأخذوا فلافوت لهم. أو على لافوت، على معنى: إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ: وأخذ، وهو معطوف على محل لافوت. ومعناه: فلا فوت هناك. وهناك أخذ.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾: والتناوش والتناول: أخوان؛ إلا أنّ التناوش تناول سهل لشيء قريب، يقال ناشه ينوشه، وتناوشه القوم. ويقال: تناوشوا في الحرب: ناش بعضهم بعضاً. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة[1] كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه وقرئ التناؤش: همزت الواو المضمومة كما همزت في أجؤه وأدؤر وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم: نأشت إذا أبطأت وتأخرت، ومنه البيت [من الطويل]:

---

(١) قوله «أن يتناول الشيء من غلوة» في الصحاح: غلوت بالسهم غلواً. إذا رميت، به أبعد ما تقدر عليه. والغلوة: الغاية مقدار رمية. وفيه: يقال بينهما قيس رمح وقاس رمح، أي: قدر رمح. (ع)

تَـمَـنَّـى نَـئِـيـشـاً أَنْ يَـكُـونَ أَطَـاعَـنِـي ....

أي أخيراً ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ معطوف على قد كفروا، على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ويأتون به ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو قولهم في رسول الله ـ ﷺ ـ شاعر، ساحر، كذاب، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي، لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً/ ٢/ ١١٤ب ولا كذباً، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله، لأن أبعد شيء مما جاء به: الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت: الكذب والزور: وقرئ: ويقذفون بالغيب، على البناء للمفعول، أي: يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه، وإن شئت فعلقه بقوله ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً، والغيب: الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين، إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا: فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز

---

(١)

ومـولـى عـصـانـي واسـتـبـد بـرأيـه	كـمـا لـم يـطـع فـيـمـا أشـار قـصـيـر
فـلـمـا رأى مـا غـب أمـري وأمـره	ونـاءت بـأعـجـاز الأمـور صـدور
تـمـنـى نـئـيـشـاً أن يـكـون أطـاعـنـي	وقـد حـدثـت بـعـد الأمـور أمـور

لنهشل بن حرى، واستبد: انفرد واستغنى بأمره. وقصير: علم رجل كان حسن الرأي، وهو فاعل أشار. ومفعول «يطع» محذوف لدلالة المذكور عليه. أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم، والأوجه رواية لم يطع مبنياً للمجهول. وقصير: نائب الفاعل، وضميره فاعل أشار، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع. وغب الأمر: بلغ غبه بالكسر عاقبته. وناء ـ بالمد ـ: أصله نأى، فقلب: أي بعد، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على طريق المكنية وإثباتهما له تخييل، كأن أوائل الأمور مضت بأواخرها، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها. ويقال: نأش بالهمز إذا تأخر. ونئيشاً: نصب على الظرف، أي أخيراً، أي: تمنى في آخر الأمر أن يكون أطاعني في نصيحتي لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة، والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه، فهي حال مبينة للمراد من الظرف. أو حدثت بعد الأمور السهلة التي كان يمكنه معها مطاوعتي أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته، كما نصحته بذلك أولاً فلم يسمع ومضى على رأيه.

ينظر: ديوانه ص ٩٥، ولسان العرب (نأش)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٣٢٥، وتاج العروس (نأش)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٣٧٧، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، ومجمل اللغة ٤/ ٣٦٧، وأساس اللغة (نأش).

obeikandl.com

بالجنة. أو من الردّ إلى الدنيا، كما حكى عنهم ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾. ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ إما من أرابه، إذا أوقعه في الريبة والتهمة. أو من أراب الرجل، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها، وكلاهما مجاز؛ إلا أنّ بينهما فريقاً: وهو أنّ المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك، كما تقول: شعر شاعر.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبيّ إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً» (١٢٣١).

١٢٣١ ـ تقدم حديث أبي بن كعب في فضائل القرآن برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. انتهى.

obeikandl.com